A Cross Section of a History
The Shia Community in Lebanon

تواريخُ مُتَقاطعَة
حِصّة الشيعة منها فِي لبنان

Documentation & Research
للتوثيق والأبحاث

مقدّمة عامة

ضروريّةٌ هي مَهَمّةُ إمعانِ النظرِ في الماضي بكُلّيتِه، وقد يتأتّى ذلك بالخصوصِ في حقِّ جماعةٍ ما، بما لها من تأثير كبيرٍ على الحدثِ التّاريخي اللّبناني، وتفاعلِ هذا الحدث معها، وبما لها كذلك من مساهمةٍ واسعةٍ في تاريخِ الكيانِ اللّبناني بجُغرافيّته الحاليةِ وفي مصائرِ أبنائِه.

هنا، سيكون السَّفَرُ إلى ماضي الشّيعةِ بمثابةِ عمليةٍ تتبُّع لحقيقةِ وجودِهم التّاريخي، ورصدِ تطوّرِ علاقاتِهم بالجماعاتِ الأخرى وتفاعلهم معها، وأيضًا علاقتِهم بالحُكمِ وعلاقةِ الحُكمِ بهم، والنّظرةِ إليهم كحاكمين تارةً أو مَحكومين طورًا.

على أنَّ مَهَمّةَ كتابةِ الشّيعةِ لتاريخِهم بأنفسهم يعوزه مزيدُ حذرٍ، دون غضِّ الطّرفِ عمّا كتبه الآخرون عنهم، سواء ما دوّنته السّلطة، أو الرعايا، وما كان منهم بإزاء ذلك. وليس بالأمر الهيّن أن يقرأ الشّيعةُ ما كتبه أبناءُ مِلّتهم عنهم، وأبناءُ المِلّة عادةً ما يكتبون بهاجس الانتماءِ إلى الجماعةِ والإعلاءِ من شأنِها.

ميـدانُ التاريـخ هـو ميـدانُ قـراءةٍ وكتابـةٍ، ميـدانُ صـراعٍ علـى مسـوّغاتِ الهويّـةِ وتجاذباتِها. ولطالما شكَّـلتِ المروياتُ الشّعبـيةُ والكـتاباتُ المدرسـيّةُ والرّوايـاتُ الرّسـميةُ، وحكايـا الأجـدادِ عناصرَ هذا الصِّـراعِ وسـياقَه الاجتـماعي-الطّائفـي، حيـث تطغـى حاكميّـةُ الوجـدانِ علـى مـا عداهـا.

لقـد كانـت المرويـاتُ بمجملهـا ترتبـطُ بـرؤًى تنـظرُ إلـى التشـيُّعِ فـي لبنـانَ بعيـنِ الرّيبـةِ، أو أنّهـا تضعُهـا فـي سـياقِ التّاريـخِ الـذي لا طائـلَ تحـته، أو أنهـا تنـظرُ إلـى الجماعـةِ الشّـيعيّة نظـرةَ تضخيـمٍ وتفخيـم. أمّـا نحـن كُـتّابُ هـذا السِّـفرِ، نُـدرك جسامَـةَ هـذه الرحلـةِ والمَهَمّـةِ الصعبـة والممتعـة فـي آن، التـي تصدّينـا لهـا بـكلِّ مـا ندّعيـه مـن حـرصٍ علـى الموضوعيّـةِ المطلوبـة.

سِـفْرُنا هـذا قـد قـسَّمناه إلـى مجموعـةِ أبحـاثٍ، مُتـداخلةٍ فـي اهتـماماتِها وإطاراتِهـا العامـةِ، مـع تـمايزٍ فـي مواضيعهـا التّفصيليّـة، وهـي تـدورُ حـول تاريـخِ الشّـيعة فـي لبنـان منـذ البدايـاتِ إلـى اليـوم، علاقتِـهم بالسّـلطات والعكـس، وكذلـك حـول جغرافيـا الأماكـن التـي نزلـت بهـا الشّـيعةُ فـي لبنـان عبـر التاريـخ، وصـولًا إلـى أيامنـا هـذه. وحـول تعـدادِ الشّـيعة السّـكاني، مـن حيـث هـم أعـدادٌ ومـن حيـث هـم عائـلات. فحاولـتْ أبحاثُنـا قـدرَ الإمـكانِ، وبمـا توفّـر مـن معطيـاتٍ، رصـدَ الكُـتلِ السّـكانيّة الشّـيعية وأعدادِهـا فـي القُـرى والنّواحـي.

كمـا عرّجـتْ هـذه الأبحـاثُ علـى تقاضـي الشّـيعة اسـتنادًا إلـى مذهبهـم. فعُـرِضَ فيهـا تعـريفُ القضـاءِ الجَعّفـري وأصولُـه وتفرعاتـه، كمـا وعرضـتْ لواقـعِ هـذا القضـاء فـي الفتـرة التـي سـبقتْ الاعتـرافَ الرسّـميِّ بـه، وبعـده.

كمـا اهتمّـتْ بيومياتِ الشّـيعةِ فـي العصـورِ القديمـةِ، عاداتِهـم وتقاليدِهـم، فـي الملْبَـسِ والمـأكل وفـي الـزّواجِ والمناسـباتِ السّـعيدة والحزينـة، وبأعلامِهم ومدارسِـهم وحياتِهـم الثّقافيـة والتّربويـة. كمـا أفـردتْ حيّـزًا واسـعًا لمسـألةِ المـرأةِ الشّـيعيّة.

ولا يُخفى على المتابعِ أنّ المواضيع المشارَ إليها قد تبدو متداخلةً في بعضِ الأحيان. ويظهرُ انعكاسُ ذلك بين دفّتي السِّفر، وهذا ما يعرّضه لشبهة التّكرار؛ لأن العملَ كان وفق عناوينَ مختلفةٍ ترتبطُ بعنوانِ البحث العام، لكنّ عزاءَنا في هذا المجال يكمنُ في محاولةِ الوصول إلى عرضٍ شاملٍ ومتكاملٍ لواقعِ الشّيعةِ في لبنان.

لقد حاولنا في أبحاثِنا هذه أن نكونَ عِلميِّين وعَمَليِّينَ قدْر الإمكانِ، وأن نبتعدَ عن صِيَغ المُبالغةِ والتبجيلِ، وكان المنهجُ التاريخي رُكن العمل الأساسيّ مع الاستعانةِ بمناهجَ أخرى في أبحاثنا المتنوِّعة والمتعدِّدة بقَدر تعدُّد مواضيع البحثِ وتنوّع مصادره. حيث اعتمدنا التحليلَ حين وجدْنا لذلك ضرورةً، وأوَّلْنا عندما كان هناك مجالٌ للتأويل، وسردْنا في مواضعَ، وأجرينا مقارناتٍ في مواضعَ أخرى؛ وقد أشرْنا إلى ذلك في مقدماتِ أبحاثنا.

أمّا عن صعوباتِ البحثِ، فقد كانت على منوالِ ما تختبره الأبحاثُ التي تتطرّقت إلى تاريخِ الجماعاتِ البشريّة وحاضرها، فمنها ما يتعلّق بالكمِّ لناحية شَحِّ المصادر حينًا، أو غزارتِها مع قلّة مصداقيّتها وموثوقيّتها أحيانًا أخرى. كما صادفَتنا صعوباتٌ فرضَها الواقعُ المعيشيُ والأمني والسّياسي الاستثنائي الذي نعيشُه.

وختامًا، نتمنى أن تكونَ هذه الأبحاثُ قد استطاعتْ أن تُقدِّم إضافةً ما، إلى مخزون المعرفةِ الإنسانية والبحثِ عن الحقيقة. ومع الشّكر الجزيل لكلِّ من تعاونَ معنا وساهم في إخراج هذا البحث إلى فضاء الوجود.

أمَم للتوثيق والأبحاث